البحث عن الذّات في الصحراء
من خلال رواية أعوذ بالله للسّعيد بوطاجين

looking the self in the desert through "aoudho bi allah" novel of said boutadjine.

يعقوب فرج الله*

مخبر تحليل الخطاب-جامعة تيزي وزو-الجزائر yaakoubferdjallah@yahoo.com

تاريخ الإرسال:01-10-2019 تاريخ القبول:16-10-2019 تاريخ النشر : 30-06-2020

ملخّص: تستهدف هذه الدّراسة التأمل في الذّات، وظاهرة البحث عنها، من خلال اتخاذها لصّحراء ملاذا آمنا لها وتبنّينا نحن لهذه الصّحراء فضاء مكانيا يساعد على تقصّي رحلة الذّات عبره لاستكشاف أعماقها، وإثبات وجودها في هذا العصر الذي أصبحت تعاني فيه ويلات التشظّي.
حيث تبيّن في ختام هذا العمل أنّ هذه الذّات بالرّغم من معاناتها من الاضطهاد والقهر الدّاخلي والخارجي مازالت قادرة على إبراز وجودها وتحقيق كينونتها عبر رفضها كل ما يطمس مقوّماتها الشّخصية، وانتشاء هويّتها وثقافتها، انطلاقا من مساءلة الماضي والحاضر والمستقبل.

كلمات مفتاحيّة: الذّات؛ الصّحراء؛ السّعيد بوطاجين؛ الهوية.

Abstract: This study aim at meditating into the self inquiry from adapting the desert as a home or shelter which consider to be safe for her and our adaption of this desert as a special space helps us to inquire the journey of oneself to investigate it's depth and to prove its existence in this sentry that become a place of fragmentation

At the end of this work we conclude that the self, despite its suffering and distortion from all different kind of oppression and inner and outer misery still able to show it's abilities and being by rejecting all that wipe it's personality and rectifiers illation its cultural and identity starting from the, past, present, and the future

Key words: self; desert; said boutadjine; the identity....

---

* المؤلف المرسل

مقدّمة: لا شكّ أن الرّواية من بين الأجناس الأدبية التي رافقت الذات الإنسانيّة عبر سيرورتها الزّمانيّة، وعايشت معها شتّى المحطّات المكانيّة التي استقرّت بها؛ بغية الإحاطة المعرفيّة الشّاملة بها، وهذا ما يؤكّده هنيّة جواد عندما يقول: إنّ الرّواية كانت تضطلع "منذ نشأتها بدور كبير في بناء صرح معرفي بالإنسان وهويّته وثقافته، فقد كانت وما تزال حقلا ثريّا تتفجّر فيه أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل، ومصدرا يعجّ بشتّى الصّور والرّموز الدّلاليّة المعبّرة عن خصوصيّة ثقافيّة وحضاريّة ضاربة بجذورها في أعماق التّاريخ"[1]، وفي السّياق ذاته تؤكّد ميلان كونديرا أنّنا في هذا "العالم الحديث الذي هجرته الفلسفة، تضلّ الرّواية مرصدا أخيرا لنا يمكنها من احتضان الحياة الإنسانيّة باعتبارها كلا"[2].

هذا من ناحية، أمّا من ناحية أخرى فقد كانت الرّواية بمثابة البيت الذي تأوي إليه الذّات رغبة في تدوين ما يعتمل نفسيّتها من الداخل والخارج سواء في صراعاتها، مكبوتاتها النّفسيّة، هواجسها، آمالها، أحلامها، ... على اعتبار أن هذه الذات كاتبة كانت أو بطلة، أو شخصيّة ثانويّة لم تكن بمعزل عن الواقع الاجتماعي –الذي هو الوعاء الذي تستقي منه الرّواية مادّتها والهيكل الذي تعكسه– وما يدور في خضمّه من حوادث تجذبها إلى قلب معادلة تفاعليّة قوامها التأثّر والتّأثير تكون فيها طرفا فعّالا، فتسافر عبر أثير الكلمة، ممتطية صهوة الخيال، المفضي إلى عالم خاص نُسِجَ بطريقة تسمح للذّات بممارسة حرّيتها الغائبة في الزّمان والمكان الواقعي، وكذا تتيح لها إمكانيّة ممارسة فعل التّمثيل السّردي لحياة الإنسان المعاصر، حتّى إن من النّقاد والدّارسين من ربط عودة الرّواية إلى مقدّمة المشهد الأدبي الحداثي بعودتها إلى

الذّات ووعيها الخاص بكل ما يتعلّق بها وبهويّتها نفسيّا كان أو اجتماعيّا، بل وجعل هؤلاء الرّوائيون هذا الوعي يستوجب أن يكون حاضرا بقوّة في ثنايا العمليّة السّرديّة.

وقد تحوّل الفضاء المكاني في الرّواية إلى أداة فنّية تساهم في نسج اللّغة السّرديّة وتحقيق الرّؤية الخاصّة بالكاتب، وهو ما يؤكّد عليه الصّالح خرفي حيث يقول: "ومن وجهة نظرنا أنّ المكان من أهمّ العناصر التي تشكّل جمال النّص إذ أنّ المكان الجغرافيّ ينبني لغة لتشكّل النّص عبر الجماليّة المكانيّة"[3]، وعلى هذا الأساس يبرز تعامل الرّوائيّ مع الحيّز المكاني وجوانب رؤيته له، حتّى يجسّد من خلاله ذلك الارتباط بالمكان الموظّف في الرّواية "حتّى وإن كان المكان بعيدا عنه جغرافيّا، فهو قريب منه نفسيّا وروحيّا، بل يعشّش في داخله"[4]، فلا يتحقّق وجوده الذّاتيّ إلا فيه.

والمتتبّع لمسار الرّواية في الجزائر يلحظ اتّجاه العديد من الرّوائيين – على غرار السّعيد بوطاجين – نحو الصّحراء بكل موروثاتها وتضاريسها وحكاياها وطقوسها، تلك الصحراء التي كانت شاهدة على انتصارات متواليّة إبان الثّورة الجزائريّة وخيبات بعد ذلك عندما تحوّلت إلى مكان للنّهب والاستيلاء على الثّروات الباطنيّة للجزائر، "فبعد تلك التّجارب التي كتبها أهل الشّمال، جاءت روايات تقوضّ النّسق الثّقافي الذي روّج لنسق الصّحرا–فوبيا وظمأ أهل الجنوب المعرفي والتّصحّر العاطفي والاستسلام للقسوة، وغياب فتنة الحكي، والتّمركز حول الشّعر، والأساطير والخرافات، وغيرها من الشّعارات التي كانت تغذّي في الخفاء استمرار ثقافة مركز/هامش"[5] وتغذّي تلك النّظرة الدّونيّة الإزدرائية للصّحراء.

وبالإضافة إلى ذلك أيضا فقد اهتمّ الرّوائيون بهذا الحيّز الجغرافي باعتباره فضاء مكانيّا له من الخصوصيّات الثّقافية يسمح لهم بتشكيل صورة ذاتيّة، أو البحث عن

كينونتهم الإنسانيّة المتشظّية في هذا العصر ما بعد الحداثي، المرهونة بتحقيق وجودهم ضمن هذا النّطاق المكاني الصّحراوي، "لأن الإنسان في سعيه للبحث عن ذاته، وتحقيقها هو في الوقت نفسه يسعى لتحقيق وجوده، ومن هنا جاءت رؤية مارتن هايدجر بأنّ الإنسان لا يمكن أن يتحقّق وجوده إلا حين يحقّق ذاته «إنّ عليّ أن أكون موجودا، وعليّ أن أحقّق ذاتي»"[6]، فالتحقّق الذّاتي يجب أن يكون مشروطا بالتّحقّق الوجودي في الزّمان والمكان اللذان يشكّلان فضاءات تتحرك في إطارها الذات، وتمارس نشاطاتها الحياتيّة.

وكبداية لورقتنا البحثيّة هذه سنستهلّها بإشكاليّة توجّه بحثنا وتؤطّر مجهودنا أثناء الدّراسة مفادها:

كيف ساعدت الصّحراء بكل موروثاتها وتضاريسها وحكاياها وطقوسها، ومن حيث هي فضاء مكانيّ له من الخصوصيّات الثّقافية الرّوائيّ الجزائريّ السعيد بوطاجين من خلال روايته "أعوذ بالله" في البحث عن كينونته الإنسانيّة المتشظّية في العصر ما بعد الحداثي؟

لكن قبل تقصّي خبايا هذه الرّحلة في مسار الرّواية، لابد من وضع جملة من الفرضيات التي سنستعين بها في هذه الدّراسة لإضاءة بعض الجوانب المعتّمة فيها، والوصول إلى مكنوناتها وكشف مجاهيلها، والتي هي:

- إلى أيّ مدى أسهمت الصّحراء في تشكيل ذات جديدة يبحث عنها الكاتب؟
- فيم تتمثّل الأبعاد الدّلالية للصحراء في رواية "أعوذ باللّه" للسّعيد بوطاجين؟

– هل يتحوّل الانغلاق المكاني إلى انفتاح دلالي يجسد الذات التي يبحث عنها الكاتب؟

وعلى ضوء ما سلف ذكره تستهدف هذه الدّراسة تسلّيط الضوء على حالة التشظّي والضّياع التي يعيشها الرّوائي الجزائري في مرحلة ما بعد الحداثة والتي أدّت به إلى انتفاء وجوده وعدميّة كينونته، فأصبح يهيم في الأرض باحثا عن ذاته بغية استعادتها، مستعينا في مهمّته هذه بعنصر المكان –المتمثّل في الصّحراء– في الرّواية الذي وجد فيه السعيد بوطاجين ضالّته بما يوفّر له من خصائص فنّية وثقافيّة تمتزج بنسيج النّص فتثريه بالدّلالات والإيحاءات، وتساعده على إيجاد ذاته المغيّبة في الشّمال، عبر النبش في مقوّمات هويّته الثّقافيّة الصّحراوية، بالإضافة إلى الطّبيعة البيئية الصّحراوية التي يظهر أن الذّات السّاردة أصبحت تحنّ إليها فرارا من الموت الواقعي تحت وطأة الاسمنت، كما سننتهج في ذلك منهجية نبدؤها بتسليط الضّوء على حالة الفرار التي تعاني منها ذات الرّوائي طلبا للحرّية والانعتاق في رحاب الصّحراء بعد أن قوّضت الصّورة القديمة للذات التي تعيش في الشّمال.

لننتقل بعد ذلك إلى تبيان دور الهوية الثّقافية الصّحراوية في تفعيل عملية البحث عن الذّات وإعادة تشكيل ذات جديدة وُلدت بعد انتشاء هذه الأسس البانية للهوية من طيات النّسيان والإهمال المتعمّد، كما نعرّج أيضا على جماليات المكان ودوره في رسم معالم الذات الجديدة مع التّمثيل لهذه العناصر، لنصل في الأخير إلى خاتمة نجمل من خلالها أهمّ ما توصّلنا إليه في هذه الدّراسة التي قمنا بها.

2. فرار الذّات إلى الصّحراء لتقويض الذّات القديمة والبحث عن ذات جديدة:

يبدو أن ذات الروائيّ هي ذات متشظّية في هذا العالم الذي "يشكّل التشظّي (الغربة، الضّياع، التشرّد ...) والغياب مكوّنا أساسيا وبعدا محوريّا من نسيج العالم

يمتاز بكونه حاضرا مبعثرا متشظّيا، وممزّق الأوصال، ومشحونا بالتّناقضات والمفارقات"[7]، وهذا ما يشير إليه انقسامها عبر ثنايا النّص مشتّتة في الزّمن بين حاضر مهدور ومدمّر، وبين ماض ساحر يسلب لبّها، وكذلك في المكان نجدها تتوزّع وجوديّا عبر مفارقة الشّمال بما يمثّله من خراب ودمار وبين الجنوب وصحرائها التي تمثّل الملاذ الآمن الذي تشعر فيه الذّات بالرّاحة والسّكينة، بعد أن "أصبح البشر، وخاصّة في الدّول النّامية، يغذّيهم شعور مزدوج بالقهر والاضطهاد والاستغلال، لأنّهم ضحيّة الاستغلال والتردّي الدّاخلي لدولهم من ناحية، والاستغلال الخارجي من ناحية أخرى. وقد انعكس هذا الشّعور على أنماط العلاقات الإنسانيّة في حياتهم، ممّا أدّى إلى تشوّه الأنا بذاتها، وتشوّه علاقاتها بالآخر"[8]، لذلك لا يتوانى "السّعيد بوطاجين" في سلّ سيفه ليقوّض الصّورة النّمطيّة للذّات التي تعيش زمن الخنوع والخضوع رغبة منه في بناء ذات جديدة؛ حيث يبدأ عمليّة الانتقال هذه، عبر التّركيز في أسلوب سردي تهكّميّ على نهب الأرض من طرف فئة معيّنة تدّعي حبّها للوطن. وبسرقة الوطن فإن هذه الذّات فقدت وجودها، بعد أن انتفت شروط تحقّق كينونتها، لذلك أصبحت تشعر بالحنين إلى الزّمن الماضي، حيث كل شيء تراه على سجيّته دون زيف أو نفاق، ومن ثمّة بدأت هذه الذّات بحثها عن وطن آخر ترتحل إليه حيث يقول: "يا سادتي قصدت المقام حاجّا، اهترأت عظامي في شمالهم وشمالكم. وددت معرفة الأرض كما ولدت. من يومها الأوّل إلى يومها السّادس. ليس هذا فقط. نذرت على نفسي لبحث عن مكان يشبه طوري الأوّل، عندما كنت بدائيّا، أنتقل من كهف إلى كهف وأغنّي بعفويّة، وأقفز من حجر إلى حجر ممتلئا بالحياة، قانعا بقدري. وقتها لم تكن هناك لا ولايات ولا شرطة، لم يكن الدّود قد أنجب الرّؤساء. رؤساء بهذا العدد المحزن"[9].

ويقول أيضا في موضع آخر من الرّواية: "وهناك من رأى أنّه مجرّد زاهد فتنه سمت الظّلام فتوحّد بالرّمل علّه يبلغ الذّات النّائية ويقرئها السّلام لتبرأ من جشع الأشكونيّين وحكّام بني عريان الذين يعانون من طول الأمعاء وكثرتها"[10]، الذين تسبّبوا في اضطهاد الذات السّاردة التي لجأت إلى الرّمل باعتباره رمزا من رموز الصّحراء الذي يتغنّى به أهلها، بالإضافة إلى أنّه يرمز إلى نقطة الحياة الأولى، وهو ما يحيل إلى رغبة في معانقة العنصر الأساسي في وجود هذه الذات وهو التّراب، في مرحلة زمنيّة أولى تتميّز بالصّفاء والنّقاء.

وبسبب هذا القهر يتوجّه الرّوائيّ إلى وصف هؤلاء الذين نهبوا الوطن بصفات لاذعة تتراوح بين الأشكونيّين، الطراطير، مدن الدّياثة، القلابق، سلطنة بني عريان...، ثم يفضحهم ويفضح تاريخهم لأنّهم خانوا بلادهم عندما لم يدافعوا عن وطنهم ضد السّرقة والاستغلال الخارجي لثروات المنطقة فسلطنة "بني عريان التي شكّلها الوندال والبربر وبنو هلال والرّومان والبيزنطيون والطّراطير والفراعنة والانكشاريون والأتراك والفينيقيّون واليهود والقراصنة والعرب والمسلمون والمسيحيون والفرنسيون والملاعق والكسكسي فلم تحرّك ساكنا لمّا رأت تاريخها مهرّبا في السّفن عبر ميناء العاصمة أشكون"[11]، كما أنّهم يسبّبون القرف والنّفور للذّات السّاردة، وهو ما يظهر في المتن الحكائي عندما رغبت هدى "في التقاط صور لأخذها إلى الشّمال. ذلك الشّمال الذي بدا لي بعيدا ومقرفا، هشّا وبلا جدوى"[12]، أي أنّه عديم القيمة في الواقع وضمن الرّواية أيضا، في تأكيد تام على تقويض هذه الصّورة المبتذلة للذّات التي انتهت صلاحيتها في هذا المشهد السّردي، متحوّلة إلى مشهد سردي آخر يستدرج الرّوائي القارئ إليه ليأسره بالحدود اللامتناهية لهذه الصّحراء التي يمتدّ "حيّزها إلى أقصى الآفاق الممكنة"[13]، وتتّسع رقعتها لتشكل العديد من الصّور الجماليّة،

معبّرة عن الأفاق البعيدة لهذه الذّات الجديدة التي لم تلبس يوما "أحذية الدّياثة التي ما عرفت آي الرّمل"[14]، ولا عرفت القيم الثّقافيّة الصّحراوية المتنوّعة والمتعدّدة بتعدّد عاداتها وتقاليدها.

3. البحث عن الذات هو بحث في تخوم الهويّة الثّقافيّة الصّحراوية: يعود السّعيد بوطاجين في روايته "أعوذ بالله" باحثا عن ذاته من خلال الصحراء كفضاء "يطلق على بعض البنيات الخطابيّة التي تظهر خلال مرحلة تاريخيّة مرتبطة بإيديولوجيم العصر الذي يميّز تلك المرحلة، والإيديولوجيم هو ذلك الطّابع الثّقافي العام الغالب في عصر من العصور"[15] محاولا النّبش في مقوّمات الهويّة الثّقافيّة الصّحراوية لانتشائها وجعلها في مواجهة الشّمال، ولهذا نجد الدّليل يؤكّد بعد أن "توقّف عن السّرد برهة وناولنا شايا منعنعا قال إنّه أعدّ إكراما للضيوف الذين أوصى بهم أسعد حالفا بطور سنين، متوعّدا جازما بأنّ اللّعنة ستحطّ رحالها إن بدّلت العين عاداتها"[16]، أو إن غيّروا تقاليدهم التي أراد السّعيد بوطاجبن من خلال هذا القول أن يشير إلى الصّلة الوثيقة بين الإنسان الصّحراوي وتاريخه الإسلامي، بعد أن حافظ عليه ومارسه في حياته اليوميّة، لذلك امتزجت هذه العادات والتّقاليد بأطعمتهم وما يؤكّ على ذلك سؤال الدليل الصّحراوي للكاهنة عن طعم الشّاي ""كيف وجدتم شاينا، كأهله أجابت كاهنة"[17].

فالشّاي، هنا، هو رمز من الرّموز الثّقافية التي يفتخر بها الإنسان الصّحراوي، كونه يقدّم دائما للضّيوف وعابري السّبيل، فهو بتعبير آخر يصاحب عادات وتقاليد إكرام الضّيف في المجتمع الصّحراوي لذلك أصبح مرتبطا بالكرم والجود التي هي من

الأسس المشكّلة للمنظومة القيمية في هذا المجتمع الذي يتشبّع بالقيم الدّينيّة الإسلاميّة لذلك نجد في رواية "أعوذ بالله" الكثير من التّناص القرآني الذي يتداخل في البناء النّصيّ منسجما معه محقّقا دلالات الارتباط الوثيق بالماضي العربي الإسلامي لتصحيح مسار الحاضر واستشراف أفق المستقبل في ظل العودة إلى هذه القيم الإسلاميّة، وتأكيدا من الكاتب على أهمّيته إلى جانب العناصر الاخرى المكوّنة لهويّته.

فبغض النّظر عن الغايات البنيويّة للتنّاص، ودورها في تحقيق أبعاد جمالية للّغة، "فإنّ الغاية الكبيرة المطلوبة هي من أجل اكتشاف هويّته وتأويله"[18]؛ أي النّص، واستقصاء الأبعاد الهوياتيّة التي تغذّي الجسد الرّوائي، وتأخذ بزمام السّيرورة السّرديّة، حيث يقول بوطاجين: "وإذا رغبتم التأكّد فانظروا حولكم تجدونها قاعا صفصفا تقول ولا تقول شيئا"[19] فهذا تناص مع الآية الكريمة «فيذرها قاعا صفصفا» (طه:106) إذ تداخل القرآن مع السّرد محدثا نوعا من "التّفاعل مع مضامينه وأشكاله، تركيبا ودلاليّا، وتوظيفها في النّصوص الأدبيّة بواسطة آليّة من آليّات شتّى، ويعدّ هذا التّنوّع جزءا ممّا يسمّى بالتّفاعل مع التّراث الدّيني بأنماطه المتعدّدة"[20]، ومظاهره المختلفة.

وكذلك في قوله: "توقّف عن السّرد برهة وناولنا شايا منعنعا قال إنّه أعدّ إكراما للضيوف الذين أوصى بهم أسعد حالفا بطور سنين، متوعّدا جازما بأنّ اللّعنة ستحطّ رحالها إن بدّلت العين عاداتها"[21] فهذا تناص مع الآية الكريمة «طور سنين» (02 من سورة التّين) لكن ما نلاحظه أن هذا التّناص أحال إلى تشبث السّارد بقيمه الدّينيّة وتشبّعه إلى هويّته الإسلاميّة التي أمدّت كلامه بقدسيّة تكاد تضاهي قدسيّة القرآن

لذلك يمنع رفض ذلك الكلام كونه يمارس هيمنة روحية وجماليّة تظهر من خلال الاتساق التركيبي للجملة.

تظهر تلك العبارة ذات تركيب بلاغي يساهم هو الآخر في إبراز الجوانب المشكّلة للهوية الثّقافيّة الصّحراوية، التي لا تزال تحافظ على رونقها وسحرها الجمالي، فهي لم تشهد اللّحن في مفرداتها، لهذا نجد الكاتب يصرّح بضرورة العودة إلى الصّحراء؛ لأنه بذلك يكون قد عاد إلى البلاغة، ومنها يكون قد عاد إلى ذاته، حيث يقول: "أنا حفيد البلاغة لذا يمّمت شطر الصّحراء"[22] ونستشهد في هذا المقام بما كان يفعله العرب قديما، عندما يرسلون أبناءهم إلى البوادي الصّحراوية حتى يقوى عودهم، وتتعوّد ألسنتهم على الفصاحة والبيان، بالإضافة إلى أن النّحاة كانوا يعودون إلى أقوال العرب من أهل البوادي لاستقاء الشّواهد النّحويّة، كون لغتهم لم يخالطها اللّحن، وما زالت ألسنتهم سليقيّة.

4. أثر المظاهر الصّحراويّة في رحلة البحث عن الذّات:تتميّز الصّحراء ببيئتها الخاصّة، وتضاريسها الصّعبة ومناخها القاسي، إذ ليس من السّهل على أي كان العيش في الصّحراء إذا لم تتوفر فيه الشّروط الملائمة لمثل الظّروف الصّعبة الموجودة في هذه البيئة، غير أن سمات هذه البيئة هي التي تسعى إليها الذات وترغب في تبنيّها، إذ أنّها أصبحت لا تطيق سماتها التي تتوفّر عليها؛ لأنّ هذه السّمات ليست مجبولة عليها وإنّما صُقِلت بها فقط من طرف الشّمال، ولذلك يسخر السّعيد بوطاجين من هذه الشّكل المزيّف الذي يطبع ذاته حيث يقول: "كان الرّمل يتموّج ، رمل ظل يسخر من شكل خطانا التي قدمت من الأرصفة المبلّطة. (...)

ضحكنا على أجسامنا الشّماليّة النّاعمة أحذية مدن الدّياثة التي ما عرفت أي الرّمل. ملمّعة، مكابرة، هي التي لم تجلس مرّة واحدة أمام سبّورة الجنوب عين العين ومقود البصر في غياهب الجبّ كيف تتعلّم المشي بتواضع"[23]، ودون تكبّر أو تصعير.

والمؤكّد أن السّعيد بوطاجين في محاولته التخلّص من هذه السّمات النّاعمة إنّما يريد لذاته أن تعود باحثة عن أصلها، لذلك جاءت وقفاته السّرديّة التي تتّخذ من الحديث عن المظاهر الصّحراويّة محورا لها ذات حيّز دلالي "يرتبط –في كلّ الحالات–بالأصل والجذور الأولى"[24] التي فُطر عليها الإنسان ثّم تغيّرت.

وفي موقف آخر أيضا من الرّواية يقول السّعيد بوطاجين: "هنا كانت العشيرة تؤلّف مواويل للصّحراء تحت ضوء قمر كبير يكاد يلتصق بالأرض"[25] نلاحظ جنوح الذّات نحو الرّاحة والسّكينة التي افتقدتها في الشّمال في عصر ما بعد الحداثة الذي هو عصر صناعي وسياسي بامتياز، شهد تدفّقا على الصّعيد العلمي والتّكنولوجي، تلاها هيمنة للاقتصاد والسّياسة وتحكّمهما الشّبه كلّي على المجالات الأخرى الاجتماعيّة والثّقافيّة، الأدبيّة... حيث أصبحت الذّات "تبحث في علاقاتها بما يحيط بها من فضاءات داخليّة وأخرى خارجيّة"[26] وتستأنس بالطّبيعة كونهما يتقاسمان هموم القهر والاضطهاد الذي لحق بهما جرّاء التطّور العلمي والتّكنولوجي والعولمة، جاعلين من كل شيء يلمسانه خرابا ودمارا، ومنه انتشرت السّياحة الصّحراويّة بما توفّره للذّات الإنسانية من استمتاع بالمناظر الطّبيعيّة "فسيكتب السّياح عن المناظر الجميلة، عن عبقريّة الرّمل والرّيح في تجسيد لوحات أكبر من الألوان، أكبر من قماش الرّسم، أكبر من المرقاش، لأنّها ببساطة صور للخالق نفسه"[27]، فلم تعث فيها

يد الإنسان فسادا بل مازالت على هيئتها الطّبيعيّة الأولى، التي تروم الذات العودة إليها لاستكشافها وتقصّيها.

ومن المظاهر البيئيّة الصّحراويّة أيضا التي شكلت موطنا استعانت به الذّات للبحث عن ذاتها نجد الشمس بحرارتها الشّديدة عندما تتوسّط السّماء متوعّدة، مزمجرة لا تقبل الندّ أبدا، أو عند غروبها، حيث أنّها ذات أبعاد رمزيّة تشعّ بالدّلالة لأنّ الشّمس ترمز إلى الصّبر عكس الشّمس التي في بلاد الشّمال، تبدو مدجّنة كالكائن الحيّ الأليف "فالشّمس هنا ليست كالشّمس المعروضة في حوانيت أشكون. تلك الشّمس طيّبة، خاصّة عندما تكون في بطاقات بريديّة ناجحة، أمّا هذه فليست كتلك. يجب معرفتها عن قرب للحكم عليها"[28] أو بعبارة أخرى يجب التّمرس عليها حتّى تتمكّن من معرفتها فهي كالجواد الذي تتدرب عليه قبل أن تركبه. هذه هي الشّمس الصّحراوية على طبيعتها، تعلّم لكن بطريقة قاسيّة، تتعلّم معها دروسا كثيرة أهمّها الصّبر والحكمة في التعامل مع النّاس.

أمّا مظهر الغروب فذلك له شان آخر لأن معنى "الغروب: الإحساس بالذّوبان في الفراغ اللامتناهي حيث تبدأ الطّبيعة في التّشكّل من جديد ماسحة آثارها السّابقة (...) الغروب لا يعرض في الأكشاك للزّينة، إنّه معلّم كبير يضحك أمام السّبورة ليمتحن قدراتك، ليجعلك متناهي الصّغر، تلميذا كسولا تعرف ولا تعرف"[29].

5. خاتمة: وفي ختام هذه الدّراسة نصل إلى أن الذات في عصر ما بعد الحداثة أصبحت تعاني ويلات التشظي والضياع بفعل الصّراعات الاجتماعيّة والسّلطويّة، وتنامي القوة التّدميريّة للعلم والعولمة، لذلك أصبحنا نرى جنوحا من الرّوائيين

الجزائريّين على غرار الرّوائي السّعيد بوطاجين، نحو العودة إلى البحث عن الذّات مرة أخرى عبر الرّواية التي كانت ولازالت تحتضن الصّرح المعرفي الإنساني.

وما ساعد السّعيد بوطاجين على القيام بعمليّة البحث عن ذاته هو الفضاء المكاني للرواية ألا وهو الصّحراء، حيث تمتاز بخصائص ثقافية، واجتماعية وبيئيّة توافقت وعملية البحث هذه ومن ثمّة المساعدة على تشكيل صورة للذّات الجديدة، وقد لاحظنا ذلك عبر عناصر ثلاثة، القاسم المشترك بينها هو الصّحراء، ففي البداية تطرّقنا إلى وقوف الصّحراء في وجه المدّ الشّمالي أي بمعنى تقويض الصّورة القديمة وبداية البحث عن الذّات الجديدة ترتمي في أحضان الصّحراء، ثم بعد ذلك من الصّحراء إلى الهويّة الثّقافيّة الصّحراوية التي جالت فيها الذّات باحثة بين تخومها علّها تبلغ مرادها، وتحقّق هدفها، لتتوقّف بعد ذلك هذه الذّات أمام المظّاهر والسّمات الصّحراويّة متبصّرة إيّاها بالملاحظة والتّدقيق اللتين تتطلّبهما عمليّة البحث عن الذّات من خلال الفضاء الرّوائي –الصّحراء–وحتّى نجمل ما خلصنا إليه من خلال هذه الورقة البحثية، نورد أهم النتائج المتوصّل إليها من خلال النّقاط التّالية:

– عودة الاهتمام بالصّحراء كفضاء مكاني له من الخصائّص الثّقافية ما يحقّق له الفرادة والتمّيز، ويجعله قادرا على عكس الصّورة السّلبية التي لاحقته من فترة زمنيّة طويلة.

– أصبح البحث عن الذّات من الموضوعات المهمّة التي نالت حيّزا من اهتمامات الرّوائيين الجزائريين –على غرار السّعيد بوطاجين–خاصة في عصر ما بعد الحداثة، وذلك بسبب حالة الضّياع والتشرّد التي أصبحت تعانيها، فنجدها دائما ما تحاول الفرار إلى ملاذ آمن يأويها ويحقّق لها السّكينة والرّاحة.

– رغم التغيّرات التي مر بها الرّواية في رحلتها التّاريخيّة إلا أنها تبقى ملامسة للواقع الاجتماعي والثّقافي الذي يعيش فيه الرّوائيّ، وفضاءً للبوح وإفضاءاته التي تعتري ذاته، ولهذا جاءت الرّواية مشتظّية بمجرّد أن عايش ذات الروائيّ تجربة التّشظي على أرض الواقع.

– شكّلت الهوية الثقافيّة والمظاهر البيئية الصّحراوية مواطن استغلّتهم الذات في تقصّي ذاتها والبحث عن شروط تحقّقها.

الهوامش والإحالات:

1– هنيّة جوادي، السّرد وتشكّل الهويّة في رواية البحث عن العظام للطّاهر جاووت، مجلّة المخبر، العدد الثّالث عشر، 2017، ص 86.

2– ميلان كونديرا، السّتارة، ترجمة: معن عاقل، دار وردة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، (دمشق: الطبعة الأولى، 2006)، ص 72.

3– محمّد الصّالح خرفي، جماليات الكتاب في الشّعر الجزائري المعاصر، موفم للنّشر، (الجزائر: الطّبعة الأولى، 2014)، ص 07.

4– المرجع نفسه، ص 08.

5– آمنة بلّعلى(2017)، متخيّل الصّحراء وإعادة تشكيل المركز في الرّواية الجزائريّة،http://www.fenni-dz.net/متخيّل-الصحراء-وإعادة تشكيل-المركز

6– إبراهيم بن محمّد الشّتوي، في البحث عن الذّات – دراسة في رواية سفينة وأميرة الظلال للكاتبة مها الفيصل، مجلّة الأثر، العدد الرّابع، ماي 2005، ص 192.

7– ناصر حسن يعقوب، أشكال التّعبير عن دلالات التّشظّي والغياب في شعر محمود درويش، مجلّة جامعة دمشق، المجلّد 29، العدد 1و2، 2013، ص 468.

8- المرجع نفسه، ص 468.

9- السّعيد بوطاجين، أعوذ بالله، منشورات ضفاف، (لبنان: الطّبعة الأولى، 2016)، ص ص 07-08.

10- المرجع نفسه، ص ص 17-18.

11- المرجع نفسه، ص 13.

12- المرجع نفسه، ص 09.

13- عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرّواية بحث في تقنيّات السّرد، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: د.ط، 1998)، ص 134.

14- السّعيد بوطاجين، أعوذ بالله، ص 09.

15- سناء بوختاش، تجلّيات الفضاء الزمكاني ودلالته في الخطاب الرّوائي، منشورات المثقّف، (باتنة: الطّبعة الأولى، 2017)، ص 09.

16- السّعيد بوطاجين، أعوذ بالله، ص 19.

17- المرجع نفسه، ص 21.

18- عصام حفظ الله واصل، التّناصّ التّراثي في الشّعر العربي المعاصر، دار غيداء للنّشر والتّوزيع، (عمان: الطّبعة الأولى، 2010)، ص 76.

19- السّعيد بوطاجين، أعوذ بالله، ص 92.

20- عصام حفظ الله واصل، التّناصّ التّراثي في الشّعر العربي المعاصر، ص 77.

21- السّعيد بوطاجين، أعوذ بالله، ص 19.

22- المرجع نفسه، ص 15.

23- المرجع نفسه، ص 09.

24- محمّد الصّالح خرفي، جماليات الكتاب في الشّعر الجزائري المعاصر، ص 205.

25- السّعيد بوطاجين، أعوذ بالله، ص 11.

26- سناء بوختاش: فضاء الشّخصيّات وتحوّلاتها في رواية لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة لخالد خليفة، منشورات المثقّف، (باتنة: الطّبعة الأولى، 2017)، ص 06.

27- السّعيد بوطاجين، أعوذ بالله، ص 36.

28- المرجع نفسه، ص 25.

29- المرجع نفسه، ص 50.